ابن خفاجة الاندلسي

احد الشعراء المغمورين

انصرف مشاهير الكتّاب الى الكتابة عن محظوظي الشعراء ، رغبةً في الكسب ، ضاربين صفحاً عن كثيرين من المجيدين ، غير حابثين بما يعود على طلاّب الادب من عرض الصور الشعرية المختلفة ، ذات المعاني المتينة الصياغة . فاعتزمت عرض بعضهم للنفع العام ، فكان أول ما عرض لي : ابن خفاجة ، أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن خفاجه الأندلسي المولود في جزيرة « شُقُر » ببلاد الاندلس سنة ٤٥٠ هـ والمتوفى في سنة ٥٣٣ هـ

ويكفي في التعريف به ما قاله عنه صاحب قلائد العقيان » : « مالك أعنة المحاسن ، وناهج طريقها ، العارف بترصيعها وتنميقها ، الناظم لعقودها ، الراقم لبرودها ، المجيد لأزهارها ، العالم بجلائها وزفافها ، تصرف في فنون الأدب كيف شاء ، وأبلغ دلوه من الإجادة الرشاء ، وشعشع القول وروّقه ، ومدّ في ميدان الاعجاز طلقه ، فجاء نظامه أرق من النسيم العليل ، وأنق من الزوض البليل ..... الخ »

وقد لاحظت خلوّ ديوانه من التعرض لحوادث الأندلس ، وقد خاض غمارها ، وذاق مرارتها ! . ولم أهتد الى السبب أو لم أوفق إليه ! .

وهو مجيد في كل ما طرقه من أبواب الشعر وميادينه .

شعره

نلحه جيد النسج ، واضح المعاني ، سهل اللفظ ، حتى لتكاد تسبق ألفاظه لسان ناشده ، يجمع بين الطرب والمعجب ، لا يتعثر فيه فهم ، ولا يقف في طريقه جواد فكر فمن ذلك قوله في الفقيه أبي العلاء زهير :

تقل الوزارة في حقه وتنزل عن قدره منصبا
تطول السماء بآبائه وتحصى بهم كوكباً كوكب
وتنقاد غر المعالي له فيقتادها مقنباً مقنبا
وحسب المنى أن يرى موعد كفيل بنيل المنى مطلبا

وقوله في مدح القائد أبي الطاهر تميم بن أمير المؤمنين :

عليه يمين أن تفيض يمينه وألاّ يفض السيف جفناً على وتر
يصب عباب البحر في السلم والوغى ببذل اليد الغراء والفتكة البكر
له راية لو زاحم الدهر تحتها لعدت به دهم الليالي من الشقر
وعزم يذل الطود هدًّا وعجدة تهز قدود السمر في الحلل الحمر
ووجه وضيء شف هنه لثامه كما شف رقراق الغمام عن البدر
اذا كنته بالمفاضة درعه تراءى هلال منه يطلع من بحر
سرى بين نوار لزرق أسنة حداد وأوراق لرايانه خضر

وصفه

حدِّث عن وصفه ولا حرج ، فان باعه فيه طال على كل باع ، وتفننه فيه عصى على غيره وله أطاع ، فمن ذلك قوله في وصف متنزه :

وبحر ذيل غمامة قد عقت وشي الربيع به يد الأنواء
القيت أرحلنا هناك بقبة مضروبة من سرحة غناء
وقسمت طرف العين بين رباوة مخضرة وقرارة زرقاء
وشربتها عذراء تحسب أنها معصورة من وجنتي عذراء
حمراء صافية تطيب بنفسها وغناؤها وجلائق الندماء

فمن ذا الذي يقرأ هذا الشعر ، ولا يخال انه يبصر بعينه تلك الروضة التي مرَّ عليها الغيث ، قبل تراها وسقى منها من نجم وشجر ، وغسل ما فيها من ورق وزهر ، فبدت متعة للناظرين ، ومسرة للمحزونين ! . . وتلك القبة التي ضربت فيها ، وحلق الشرب تحت

ظلالها ، وفي يد كل كأس مملوءة خمراً كأنها عصرت من خدود الورد الحسان ! .

وقوله في وصف فرس أشقر :

ومطهم شرق الأديم كأنما ألفت معاطفه الصبيح خضابا
طرب اذا غنى العجاج مزق ثوب العجاجة منه وذهابا
قدحت يد الهيجاء منه بارقاً متلهباً يزجي الظلام شهابا
ورمى الحفاظ به شياطين العدا فانقض في ليل الغبار شهابا
بسام ثغر الحلي تحسب أنه كأس أدار بها الزجاج حبابا

ومن ذا الذي يتذوق للأدب طعماً ، ويقرأ هذه الأبيات ولا يهتز طرباً من هذا التصوير البديع الآخذ بالألباب ، بل من ذا الذي لا يخيل اليه ، بعد انشادها ، ان الفرس الممتلىء الجسم الأحمر اللون ، قد أخذه الطرب عند رنين الصوف في معمعان القتال ، فصال وجال ، يضرب الأرض بسابكه التي تقدح الشرر الذي يحرق الغبار فيثيره سحاباً ؟ وكأنه شيطان يقذف به الغيظ العدو فينقض عليه انقضاض الشهب على الشياطين التي تحاول استراق السمع ، حتى يغطي العرق جسمه فيبدو كالكأس عند امتزاجها بالماء حين يطفو الحبب على وجهها كالنجوم البيض في الليلة الظلماء .

وقوله في وصف سفينة :

وجارية ركبت بها ظلاما يطير من الرياح لها جناح
إذا الماء اطمأن فرق خمراً هلا من موجه ذهب رواح
وقد ثغر الحمام هناك ثغراً وأتلع جيده المتاح
فما أدري أموج أم قلوب وأنفاس تضمنها رياح

فمن ذا الذي يقرأ هذا ، ولا يقشعر بدنه من هول الموقف ، اذ يخال انه راكب سفينة في بحر لجي ، عظم اضطرابه وتلاطمت أمواجه ، في ليل شتت الامه ، وتراكم غمامه ، فحبس عن العيون مسالك الأمان ، وبدا شبح الموت ماثلاً فاستسلم الركب لقضاء الله .

وقوله يصف شجرة على نهر :

وسرحة خاض منها ظلها نهرا أوفت عليه ولم تنقص ولم تزد
كما تدانيت من ثغر لمرتشف ثم انثنيت ولم تصدر ولم ترد
كأن أفنانها طيباً حمى ملك أعطى وأعطى فلم يوعد ولم يعد

فقل لي بربك : من هذا الذي أخذ هذا المنظر فصوّره هذا التصوير البديع ، منظر كثيراً ما تراه العين فترتاح اليه وتعجب به وتعجز عن تصوير جماله ، وابراز حسنه ، نقله الينا نقلاً أميناً في يسر وسهولة ومنطق سليم .

الرثاء

رثاؤه كمدحه ووصفه جودة ورقة ، مع ميل الى ضرب الأمثال المهوّنة من شأن الدنيا . فمن ذلك قوله في الوزير أبي ربيعة .

شراب الأماني لو علمت سراب وعقبى الليالي لو فهمت عتاب
إذا ارتجمت أيدي الليالي هباتها فغاية هاتيك الهبات ذهاب
وهل مهجة الانسان الا طريدة تحوم عليها للحمام عقاب
يخب بها في كل يوم وليلة مطايا الى دار البلى وركاب
وكيف يغيض الدمع أو يبرد الحشى وقد باد أقران وفات شباب
فما غاب عن خل الصبا خل شيبة ولا عاض من شرخ الشباب خضاب

الى أن يقول :

فيا لهم من ركب صحب تتابعوا فرادى وهم ملء العيون شباب
دعا بهم داعي الردى فكأنما تبارت بهم خيل هناك عراب
فيا هم وسلم الدهر حرب كأنما جنا بينهم طعن لهم وضراب
هجود ولا غير التراب حشية لجنب ولا غير القبور قباب

قول رأيت سهولة لفظ وتمرّ معنى ، وجمال تعبير ، وانسراق وضوح ، في موجات موسيقية ، ممتزجة بموجات الحزن والأسى ، أحسن وأرق وأجود من هذا ؟

(يتبع) محمد رضوان المحمر